تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور بوعلام بلقاسمي [1955-2017]

نم قرير العين... يمضي الرجال ويبقى النهج والأثر

بقلم: الدكتور عبد الحق شرف

مدير مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة ابن خلدون تيارت

رحل عنا قبيل أيام قلائل إلى دار البقاء المرحوم بكرم الحي القيوم، الأستاذ الدكتور بوعلام بلقاسمي بعد صراع مع المرض. ولَكَمْ كان وقع خبر انتقاله إلى الأخرى على نفسي كالصاعقة؛ حيث انتابني شعور رهيب لم يفارقني إلى لحظة تحبير هاته السطور.

نعم؛ لقد عشت وما زلت أعيش منذ إعلان خبر وفاته رحمه الله حالة من الاكتئاب والعزلة أَلَمًا لفَقده. كيف لا وهو الأستاذ الذي كنت أرى فيه المستقبل الواعد للبحث التاريخي ببلادنا، هو وثلة من المخلصين أمثاله -أطال الله في عمرهم، وبارك فيهم ونفع بعلمهم- الأستاذ الدكتور بن نعمية عبد المجيد، الأستاذ الدكتور بن معمر محمد، الأستاذ الدكتور جمال يحياوي... والقائمة تطول.

إنني اليوم وبعد مضي أيام قليلة على وفاته رحمه الله، أحسّ بشوق رهيب يشدّني إليه، كلّما تذكّرته، أو قلّبت في ملفاتي فعثرت على شيء يجمعني به. ولم تزل بي هاته الحالة إلى أن قرّرت أن أسوّد أوراق هاته العجالة علّها تكون آخر شيء أودّع به أستاذي العزيز بوعلام، عربون محبّة منقطع النظير، ووفاء لا محدود أكنّه له رحمه الله.

إنني وأنا أكتب هاته الكلمات اليسيرات؛ أنحني من خلالها تواضعا وإجلالا وإكبارا لهذا المؤرخ الذي بذل نفيس أوقاته، وأزهى فترات عمره للتنقيب في تاريخ الجزائر وبلاد المغارب على حدّ سواء؛ حيث كان سفير الجزائر في الكثير من المحطات الدولية. كيف لا وهو من الجيل الفريد الذي انبرى لدراسة التاريخ والبحث عن مصادره ومظانه، وسبر أغواره في كل لحظة وحين.

لقد جمعتنا الأقدار الإلهية بالدكتور بوعلام بلقاسمي رحمه الله منذ قرابة العقدين من الزمن، وحصل لنا شرف التعرف به والتتلمذ له أيام كنت طالبا عنده بالدراسات العليا (الماجستير). عرفته خلال هذه المدة أستاذا مثابرا، جادا حليما، ومؤرخا متميزا. وهي طباع ليست بالغريبة عنه ولا الدخيلة إليه، لاعتبار واحد ووحيد ألا وهو أنه سليل العزّ والشرف، سليل أسرة مجاهدة مرابطة شريفة بنواحي

البيض، والتي عُرفت بتاريخها العريق والمجيد، والحافل بالأمجاد والبطولات، والتي أخذت على عاتقها في الوقت نفسه مهمة نشر العلم والمعرفة بين أبناء المنطقة.

ولقد كان الفضل الأكبر بعد الله سبحانه تعالى في إتمامي لمشاريعي البحثية في الماجستير والدكتوراه لأستاذي المشرف، شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور بن نعمية عبد المجيد - حفظه الله وأطال في عمره- ثم الفضل الثاني للمرحوم الدكتور بوعلام؛ بتوجيهاته السديدة والقويمة في كل وقت قرعت بابه، وطلبت مساعدته، فكان نعم الموجّه، ونعم الناقد.

وهو الذي ما فتئ يشجعني ويغمرني بفيض نواله وامتنانه، خاصة أيام كان عميدا لكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران، وهي الفترة التي تمتّنت صلتي به كثيرا. فكان مناسبة انعقاد الملتقى الدولي حول تراث الأمير عبد القادر سنة 2008 سانحة طيبة ازداد خلالها رابط هاته الصلة قوة، وحظيت وقتها بثقة مطلقة من طرفه رحمه الله؛ ثقةٌ كنت أبادله إياها بكل صدق وإخلاص، وامتدّ أثرها إلى وفاته رحمه الله.

إن هاته الشهادة التي أكتبها في المرحوم أستاذي الدكتور بوعلام، هي اعتراف من التلميذ لشيخه؛ اعتراف لهاته القامة الشامخة، والراية الخفاقة في سماء البحث العلمي التاريخي ببلادنا الحبيبة؛ لهذا الرجل الكريم المعطاء، الباحث البحّاثة والمؤرخ الكبير.

لقد كانت آخر مرة اجتمعت فيها بالمرحوم؛ اجتماع المريد بالشيخ قبل سنة تقريبا (شهر أوت 2016) بمدينة سيدي سعادة بولاية غليزان، بمناسبة حضور زفاف ابن أحد الزملاء، ولقد كان اللقاء حميميا جدا، سألناه خلالها عن أحواله وتجاذبنا معه أطراف الحديث في عديد القضايا، لتكون هي آخر مرة يكتب لنا فيها اللقاء به، ولم أدر حينها أنها كانت محطة الوداع الأخيرة معه رحمه الله.

ومع أنني قمت بمراسلته قبل وفاته بأسبوع تقريبا (يوم 14 جويلية 2017)، طالبا منه مباركة المجلة – مجلة العبر- التي قمنا بتأسيسها بمخبرنا، والانضمام لهيئتها الاستشارية الدولية، إلا أنني لم أتلق منه جوابا. ذلك لأنه اشتدّ به المرض خلال تلك الأيام والتي كانت آخر عهده بهاته الدنيا، إلا أن جاء الخبر برحيله عنها فجر يوم السبت 22 جويلية 2017 بالعاصمة العمانية مسقط. فرحمه الله تعالى، وغفر له، وتجاوز عن سيئاته، وإلى جنات الخلود أستاذي الدكتور بوعلام.

مدينة تيهرت، الجزائر، يوم: 2017/07/25